حكم الله

بقلم : ذوالنون أيوب

في بلد من بلاد الله وقعت حوادث هذه القصة بحذافيرها دون زيادة او نقصان . واستميح القارىء عذراً عن اكتفائي بالتلميح دون التصريح فهذه الحوادث سياسية ، واست اتوخى السياسة فيما اكتب غير اني لا احجم عن الغوص في اعماق لججها لو رأيت درة بين اصداف بحارها .

البلد دمقراطي في عرف السياسة ، لان السياسة شاءت ان تسمي المملكة التي تضم ذلك البلد ، مملكة دمقراطية . اما سكان البلد فيجهلون المعنى السياسي لهذه الكلمة جهلا تاماً ، فهم غير دمقراطيين ، والاصح ان تسمي الامي عالماً ولكن السياسة تصر على هذه التسمية ، واظنها تذهب في ذلك مذهب اطلاق الجزء على الكل .

اما هذا الجزء الدمقراطي من ذلك الكل غير الدمقراطي ، فقسمان قسم قد قرأ معنى الكلمة في الكتب ودرس اخبارها العالمية في الصحف ، ولكن لم يتح له ان يطبقها في الحكم . والقسم الثاني قد طبقها في الحكم دون ان يقرأها في بطون الكتب ودون ان يهتم بمفاهيمها العلمية واسسها العالمية .

والقسم الثاني اقل من الاول بكثير ، اذ لا يتجاوز افراده العشرين عداً ، يتناوبون السلطان ويتداولون الاحكام يسنون ما يريدون من قوانين ، ويفرضون ما يشاؤون من انظمة ، ويطبقون ما يهجبهم من مناهج ، مدعين ان كل ذلك في مصلحة الشعب الجاهل ، وما دام الشعب جاهلا فلا حق له بمناقشة امر يهمه ، او إبداء رأي في شيء يعنيه ، وقد

آراء حرة

يحدث بين افراد هذا النفر القليل خلاف ، فيكون ذلك الخلاف برهاناً على ان الدمقراطية قد استكملت شروطها ، وهل ثمة دليل اعظم من وجود المعارضة ، ويضم القسم الأول من هذين القسمين جميع الشبان العصريين المثقفين ، والأدباء الغارقين في المثل العليا والاخيلة الجميلة ، والمتطرفين الذين قادهم تعمقهم في ثقافة العصر الى حد التورط في المبادىء الهدامة والالحاد البغيض ، والمتدينين الذين لا يؤمنون بامكان حدوث اصلاح إلا بظهور ولي جديد يحيي ما اندثر من قديم ، ولا بأس ان يكون آية عصرية تعتمد على المسدس والديناميت .

ويمكن ان نسمي القسم الأول من هذين القسمين اكثرية اذا قيس بالقسم الثاني وهو اقلية اذا ما قيس ببقية افراد الشعب الجاهل الخاضع في كثير من الاحيان الى اهداف هؤلاء المضطهدين مثله فيسير وراءهم في انتفاضات سرعان ما يخمدها القسم الثاني بالشرطة والجولسيس والحكام والسجون وبكل جهاز من اجهزة الحكم ، وهكذا نشبت حرب دائمة بين هاتين الاقليتين السياسيتين منذ ان وجدتا وستبقى مستمرة حتى ينعدم الخلاف بين مفاهيم هذه الكلمة الغريبة [الدمقراطية] والحرب كرّ وفر كما لا يخفى على القارىء ، ففي فترة ما فر الحاكمون وكر المحكومون وتألب الشعب الجاهل والتف حول قادته وتظاهر في الشوارع ، واكثر من الخطب والتهديد والوعيد ، واتى بكل ما يسميه الحاكمون المغلوبون فوضى حتى انهم لم يروا مناصاً في آخر الامر ان يعترفوا بمنطق قادة الدهماء مكرهاً ، فاعترفوا بأن تعريف النائب عن الناس ، هو ذلك الذي ينتخبه الناس ليمثلهم في المجلس النيابي ، لا الذي تعينه الحكومة لهم ، واعلنوا لارضاء الشعب ان للناس الحق في ان ينتخبوا نوابهم من الآن فصاعداً . وشرع الناس ينتخبون نوابهم فعلا ، فاحدثوا بذلك من الشغب والهرج والمرج ما كان دليلا بيد الفئة الحاكمة المتربصة

على خطأ هذا الاسلوب الذي ادخله الشيوعيون في الدمقراطية بغية الهدم والتخريب ، وبينما الشعب في نشوة انتصاره اذ هيأت الاقدار للهيئة الحاكمة المتربصة المغلوبة فرصة طيبة جعلتها تكر كرة ساحقة وتستعيد مركزها فقر اعداؤها ووجد مرشحي الشعب انفسهم في قبضة السجون .

اجتمع في سجن البلد ادبب مثالي ، وشيوعي هدام ، وكاتب متفلسف زنديق وعدد من المتقشفين الزاهدين ورغم اتحاد هؤلاء في ان لهم عدواً مشتركا فهم مختلفون فيما عدا ذلك اشد الاختلاف ، بحيث لا يمكن ان يجتمعوا في غير السجن . وكان معهم في سجن التوقيف عدد هائل من المجرمين وغير المجرمين ، من سواد الشعب ، قد كبس كبساً في دار ضيقة ، في انتظار يوم المحاكمة الذي قد يتأخر ستة فأكثر ولا اهمية للموقوف بريئاً كان ام مذنباً .

واضطرت ادارة السجن الى جمع الموقوفين السياسيين الممتازين في نظرها في غرفة واحدة ، وجعلتهم بمعزل عن سواد الشعب خوف انتشار فسادهم بين المجرمين .

وهكذا اضطر هؤلاء اضطراراً الى السكنى تحت سقف واحد ، ياكلون ويشربون وينامون معاً ، ولا يجد احدهم مناصاً من ان يصغي الى آراء رفيقه التي لا تعجبه كارهاً . كانوا متذمرين ناقمين حاقدين مؤمنين بأنهم مظلومون معتدى عليهم ، وهذا هو الامر الوحيد الذي لم يتجادلوا فيه ولم يتناطحوا ، وبدأوا يومهم الأول وهم في تعارف وتآلف ، يكرم بعضهم بعضاً ويواسيه ويصبره ، حتى اذا ما حل موعد الصلاة ، قام مؤذن من بين المصلين ، ولعلع صوته وسط المساجين المستغربين . ثم صلى التقاة خاشعين ، وختموا صلاتهم بالدعاء على الظالمين . [اللهم شتت شمل الظالمين ، اللهم اجعل دائرة السوء تدور عليهم] .

فابتسم الأديب مسروراً ، وتمتم عجباً فالتفت اليه الملحد متسائلا وقال [اوتؤمن بأن شمل الظالمين سيتشتت ، وان دائرة السوء ستدور على الباغي بمجرد هذا الدعاء] .

فأجابه الأديب [ليس هذا ما اعجبني ولكن الذي اراحني هو مظهر هذا الايمان العميق وجماله ، ان مثل هذا الايمان يجعل صاحبه متفائلا هنيء البال وسط المحن . فأجاب الملحد ساخراً اني لا اقل عنهم صبراً واحتمالا رغم الحادى] .

فأجابه الأديب [انت ايضاً تؤمن بشيء . انك تؤمن بالعلم وتثق بالاسباب والمسببات ولكن ايمانك لا يمكن ان يطغى على ايمانهم فايمانك جزء ضعيف من كل قوي . انك تؤمن بجزء من العالم ايماناً واعياً ، وهم يؤمنون بالقوى المسيطرة على هذا العالم ويثقون بحكمتها ثقة غير واعية لا تحير صاحبها ولا تربكه . فهم أسعد منك حتماً] . ورفع الشيوعي عقيرته معلناً عن رأيه متباهياً كعادة امثاله [الدعاء على الظالم سلاح العاجز . فمن اراد ان يشتت شمل الظالم فليذبه المظلوم ، ويحرضه على الثورة والعصيان . فيجعل من الشعب سوطاً من اسواط الله ونقمته ، ولا واسطة لذلك غير التنظيم والخطابة والاقناع] .

فأجابه احد المتقين ساخراً [دونك الشعب خارج هذه الحجرة فهلا قمت فخطبت فيه ؟] . فأجاب معتذراً [كنت افعل لو لا ان قانون السجن يمنع ذلك] فقال الاديب ضاحكا [ولكن قانون السجن لا يستطيع ان يمنع الصلاة والدعاء]

والتفت الاديب الى الملحد وقال مشيراً الى الشيوعي [هاك انساناً آخر لا يؤمن بالله بقدر ما يؤمن بالشعب ، ولعله لو تعمقت بايمانه الى درجة قصوى لبدت علامات الصبر وراحة البال عليه] .

وهنا التفت الملحد الى الاديب وقال ساخراً [قد عرفنا كلنا آلهتنا عن طريقك ياسيدي فهلا عرفتنا بالهك انت ؟ فبماذا تؤمن ؟]

فأجاب الأديب [اني اومن بالانسان كله وبما يعبد ويؤمن به . اني اومن بكم كلكم على اختلافكم وبما تعبدون] ودأب المصلون على صلاتهم يؤدونها بانتظام خاشعين كما دأبوا على تكرار دعائهم في اخرها [اللهم فرق شمل الظالمين اللهم اجعل دائرة السوء تدور عليهم] .

وطال الأمد على الموقوفين ، واستمرت معركة الانتخابات تجرى خارج السجن ، فرجحت كفة انصار الفئة الحاكمة رجحاناً بيناً ، وكاد المتمردون الذين يبغون تغيير الاوضاع

ولو جزئياً ييأسون . وكانت تلك الانباء المحزنة تصل الى الموقوفين مع الزوار ، والأصدقاء ، ونقلة الاخبار .

وقال الملحد يوما متفكها اثر سماعه دعاء المؤمنين [ايها الاخوان بلوح لي ان الله لا يتدخل في السياسة فلماذا تريدون اقحامه فيها بهذا الدعاء الملح] .

فأجابه احدهم [ان الله يتدخل في كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، انه هو السميع المجيب] .

واضاف الشيوعي مقهقها [اتراه سيتدخل في الانتخابات ؟]

فأجاب الأديب [من يدري ؟] وفي نهاية الاسبوع الثاني وصل السجن خبر غريب هاج له الموقوفون وماجوا . وهلل له المصلون وكبروا وتفصيل الامر ان المرشحين الأعلون ارادوا ان يحتفلوا بنصرهم الساحق على المستضعفين الادنين فأولم احدهم ، ودعا رفاقه الى سهرة ممتعة في بستان نضر يشرف على النهر تضم راقصات وعازفين ومطربات ومغنين فسكروا حتى عربدوا ، وانطلقوا انطلاقا سبب استياء جوق الطرب وحاشيته ، وادى الاستياء الى مشادة بين الداعين والمدعوين وانتهت تلك المشادة بحادثة غريبة . فقد فقدت راقصة شهيرة من الحاضرات تابعها الأمين وخادمها الوفي ورجعت بدونه ، وبلغ الخبر ذوي الفقيد وتسرب الى الناس وانتشر بينهم انتشار البرق فتطوع بعض الصعاليك بالبحث عنه وغاصوا عليه في الشاطىء المجاور لذلك البستان وانتشلوه ميتاً وعلى جسمه آثار جروح ورضوض .

وارادت السلطة المحلية ان تسدل ستاراً على الحادث وتعتبر الوفاة قضاءاً وقدراً ، وان الفقيد قد سكر وسقط بعد ان فقد وعيه في النهر فمات ، وربما كانت الحقيقة كذلك ولكن الناس ارادوا غير ذلك فنشروا الخبر بسرعة خارقة ، وعللوه تعليلا قد يكون بعيداً عن الحقيقة بعد السماء عن الأرض . فالقوا التهمة في اعناق الاسياد المرشحين عنهم رغم انوفهم ، ووضعوا تفاصيل للحادث ، فكانت قصة فضيعة سداها التشهير ولحمتها الفضيحة . ولم يكتفوا بذلك بل نظموا القصائد والاهازيج في وصف الحادث ونشروها وصار الاطفال يتغنون بها في الشوارع ، واضطرت السلطة الى اعادة التحقيق والاهتمام بالامر اهتماما جديا تطمينا للرأى العام الذي هاج هذه المرة هياجا اخلاقيا دينيا لا سياسيا ، ووضعت السلطة اسماء اولئك الاسياد في قائمة المتهمين ، واضطرت الى سوقهم للقضاء . واوعزت السلطة العليا الى هؤلاء المرشحين بالانسحاب من معركة الانتخاب وبذلك رجحت كفة مرشحي الشعب واضطرت السلطة الى اطلاق سراح انصارهم وهكذا فاز رفاقنا الموقوفون فوزا غير متوقع وقال المصلون لرفاقهم بعد خروجهم من السجن [ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين] .

اما الملحد فقال ساخراً « اشكروا خسة طباع اعدائنا فالفضل لها في الوصول الى هذه النتيجة » .

وقال الشيوعي « بل الشعب هو صاحب الفضل فلولا تدخله واهازيجه وقصائده لما خضع اولو الامر للحق ولما اضطر الى مجاراة الشعب » .

فضحك الأديب وصاح بهم : « كل ما تقولون صحيح فانتم مصيبون كلكم رغم اختلافكم . ولكن يستحيل عليكم ان تدركوا ذلك .. اما وانكم لا تتفقون . فاكتفوا بالثمرة واهنأوا بها ، وانطلقوا كلكم احراراً » .

بغداد ذوالنون ايوب

الى المدلسين ! . . .

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا
والشر في الناس لا يفني وان قبروا

واكثر الناس آلات تحركها أصابع الدهر يوماً ثم تنكسر فلا تقولن هـذا عالم علم ولا تقولن ذاك السيد الوقر فاكثر الناس قطعان يسير بها صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

فالقوم لو لا عقاب البعث ما عبدوا
ربا ولو لا الثواب المرتجى كفروا
وانما الدين ضرب من متاجرهم
ان واظبوا ربحوا أو هملوا خسروا

فسارق الحقل مقتول بفعلته وسارق الروح لا يدري به البشر

جبران خليل جبران